

**المشكلة الجزئية الرابعة : في الذاكرة و الخيال**

**العنصر : طبيعة الذاكرة ( الذاكرة بين الفردي و الجماعي )**

**السؤال : هل الذاكرة ذات طبيعة اجتماعية أم ذات طبيعة فردية وذاتية ؟**

**المقدمة :** ينفرد الإنسان عن غيره من المخلوقات بجملة من الملكات الذهنية التي تساعده على تحصيل المعرفة وتحقيق التكيف مع العالم الخارجي ومن بين هذه الملكات الذهنية نجد **الذاكرة** التي تقوم بحفظ صور الواقع الماضي واسترجاعها في الحاضر مع الوعي بها من حيث هي وقائع ماضية ونظراً للأهمية التي تكتسيها الذاكرة لدى الإنسان فقد حضيت باهتمام العديد من المفكرين والفلسفه وعلماء النفس نتج بشائرها اختلاف في المواقف وتبادر في التصورات لاسيما حيال **طبيعتها** إذ يعتقد البعض بأن الذاكرة ذات طبيعة اجتماعية في حين يرى آخرون بأنها تعود إلى فاعلية الفرد و إمكاناته الذاتية وفي ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : **ما طبيعة الذاكرة ؟ هل هي ظاهرة اجتماعية أم ظاهرة فردية وذاتية ؟**

### **العرض ( محاولة حل المشكلة ) :**

**1 - عرض منطق الأطروحة :** يرى أنصار **النظرية الاجتماعية** و في مقدمتهم موريس هالفاكس ، إميل دوركايم و بيير جاني بأن ذكرياتنا ليست حوادث نفسية محضة أو مادية ترتبط بالدماغ وإنما هي معطى اجتماعي و تتشكل داخل الأطر الاجتماعية و بذلك فإن الذاكرة وظيفة ذات طابع اجتماعي و ليس للفرد أي إرادة ذاتية في عملية التذكر إلا بوجود الجماعة

و يستند أنصار هذا الإتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :  
**إذ يؤكد علماء الاجتماع بأن الفرد عضو في المجتمع و لا يمكنه أن يكون بمعزل عن تفاعله مع غيره فهو يكتسب من خلاله التصورات و الأفكار و القيم ... و وبالتالي فذكريات الفرد تتكون في إطار المجتمع و أن ذكريات هذا الفرد يشاركه فيها أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه و الذي يقدم له في كل لحظة الوسائل التي يستعيد بها ذكرياته شريطة أن يلتفت إلى هذه الجماعات يقول **هالفاكس** في هذا الصدد :  
(( الجماعات التي أنا جزء منها تقدم لي في كل آن الوسائل الكفيلة باعادة ترتيب**

**هذه الذكريات ))**

فيها ( في الأسرة ، المدرسة ، الشارع ... ) و كل ما نتذكره و نسترجعه من ذكريات فإن المجتمع هو الذي يذكرنا به و ذلك لأن الذكريات في أصلها كانت اجتماعية و مشتركة بين الأفراد فماضي الفرد في الواقع هو ماضي الجماعة لهذا فإننا لا نحتفظ به في ذاكرتنا الفردية إنما نحتفظ به في ذاكرة الجماعة مثل ذلك فالمجاهد الذي عايش أحداث الثورة الجزائرية فإنه في حاجة إلى غيره ( الجماعة ) لكي يتذكر هذه الأحداث بدليل أن الشعب الجزائري فإذا احتفل بها فإنه يتذكر ذلك يقول **هالفاكس** في هذا : (( انتي في أغلب الأحيان عندما تذكر فإن الغير هو الذي يدفعني إلى التذكر لأن ذاكرته تساعد ذاكرتي كما أن ذاكرتي تعتمد على ذاكرته ))

فالذاكرة برأي المدرسة الاجتماعية عبارة عن إدراكات مشتركة بين الأفراد المنتسبين لنفس الجماعة و عملية التذكر تتطلق من المعارف و المفاهيم المشتركة بين الأفراد و من تجاربهم قصد استعادة أحوالهم وأعمالهم الماضية بواسطة أطر كاللغة و الفكر و كذا الحوادث الاجتماعية كالاعياد و المناسبات و العادات و التقاليد ... و هي التي تجعل الفرد يكتسب من خلالها أفكاره و تصوراته و معتقداته و تقاليد حيث يقول **هالفاكس** في هذا : (( وفعلاً فما دامت الذكرى تعيد إدراكا جماعياً فإنها في حد ذاتها لا يمكن أن تكون إلا جماعية و يكون من غير الممكن للفرد المقتصر على قواه فقط أن يتصور من جديد ما لم يتمكن من تصوره أول مرة إلا بالإعتماد على فكر زمرة ))

هذا و يرى **بيار جاني** أنه لا يمكن أن نبحث عن ذاكرة منشئها الفرد فالذاكرة هي ذاكرة الزمرة الأسرة و الجماعة و الطبقة الاجتماعية لأن الإنسان يعيش ماضيه المشترك مع الجماعة فالفرد لا يستطيع أن يتذكر بمفرده و إنما هو مفروض عليه من طرف المجتمع يقول **بيار جاني** : (( لو كان الإنسان وحيداً لما كانت له ذاكرة و ما كان بحاجة إليها ))

ويرى **دوركايم** أن المجتمع يمثل السلطة القهرية و الجبرية المتعالية على الأفراد لأنها ناتجة عن الضمير الجماعي و في هذا يقول : (( إذا تكلم الضمير الفردي فإن المجتمع هو الذي يتكلم )) فنحن نتذكر المناسبات الوطنية

**المقد** : صحيح أن للمجتمع دور في عملية استرجاع الذكريات لكن التسلیم بمطابقية القول فيه تقليل من شأن الإنسان و قدراته الذاتية كما أن الفرد قد يتذكر الحوادث الشخصية الخاصة به ( الأسرار ) دون أن يذكر بها المجتمع و مهما كان دور المجتمع فهو محدود ثم أنه لو كانت الذاكرة جماعية لتطابقت ذاكرة أفراد

المجتمع الواحد و هذا ما ينفيه الواقع و لماذا ننتقي أحياناً بعض الخبرات دون غيرها أليس لأسباب ذاتية كالميل أو الرغبة؟ و عليه يبدو أن النظرية الاجتماعية أخلطت بين الذاكرة و العوامل المساعدة على التذكر

**2 - عرض تفاصيل الأطروحة :** على خلاف الموقف الأول ترى **النظريتين المادية و النفسية** بأن الذاكرة ليست ذات طبيعة اجتماعية وإنما هي ظاهرة فردية وذاتية إذ يرى أنصار **النظرية المادية** وفي مقدمتهم **تيودول ريبو ورونيه ديكارت** وبنين بأن الذاكرة ظاهرة فردية وذاتية و لكنها ذات طبيعة مادية خالصة فهي لا تختلف في وظائفها عن وظائف الظواهر الفيزيائية فهي تمتلك خاصية القابلية للاحتفاظ بآثار الذكريات المسجلة في خلايا الدماغ مثلاً تمتلك قطعة الحديد خاصية الانصهار والتتمدد والورقة خاصية القابلية للانثناء والطي فالذاكرة في نظرهم تابعة للجسم من اختصاص الدماغ فهي وظيفة يقوم بها الجهاز العصبي وبالتالي فالذكريات هي عبارة آثار مادية مخزنة في خلايا القشرة الدماغية بفعل التكرار إذ يمكن إثارتها مرة أخرى بفعل منبهات الحاضر (كلمة، إشارة، صورة، فكرة، مكان...) وفي

**هذا يقول ريبو : (( إن الذكريات تخزن في الدماغ وان كل خلية تخزن معلومة معينة ))**

فالمناطق الدماغية في نظر ريبو تتلقى المعلومات عن طريق حاسة السمع فتحفظ بسرعة لكنها عرضة للنسيان بسهولة وإذا أراد الإنسان أن يثبتها أكثر لابد وأن ينقلها إلى ما يعرف بالذاكرة قصيرة المدى بفضل الانتباه والتركيز (الوعي) تحفظها لمدة قصيرة وعن طريق التكرار تنتقل إلى ذاكرة طويلة المدى وتنقسم على الدماغ فتترك آثاراً فيه

وهذا ما نجده أيضاً عند ابن سينا الذي قال : (( إنها قوة محلها التجويف الأخير من الدماغ من شائتها حفظ ما يدركه الوهم من المعانى الجزئية )) فنجده يقسم تجويف الدماغ إلى ثلاثة مناطق مقدم وأوسط ومؤخر ، الأولى مسؤولة عن حفظ صور الأشياء الحسية والأخير يحفظ بمعانٍ تلك الصور أي بالذكريات فوظيفة الذاكرة بهذا المعنى هي الحفظ والتذكر

وهذا الرأي أيضاً نجده عند رونيه ديكارت الذي يقول : (( إن الذاكرة تكمن في ثنايا الجسم )) والمقصود بذلك هو الدماغ وهذا ما عبر عنه تين بقوله : (( المخ وعاء لحفظ الذكريات )) وبحسبه أيضاً ( تين ) بأن الذكريات محفوظة في الدماغ كما

تحفظ الموسيقى في الأسطوانة وأي تلف مادي يصيب الأسطوانة يتلف المعلومات المحفوظة بها والأمر نفسه ينطبق على الذاكرة فإذا صابة أي جزء

من الدماغ سيؤدي إلى تلف كلي أو جزئي لبعض الذكريات

ويستند أنصار هذا الاتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

**الحجـة الأولى :** توصل ريبو إلى أن إتلاف خلايا الجملة العصبية نتيجة حادث ما يؤدي مباشرة إلى فقدان جزئي أو كلي للذاكرة وهذا من خلال استناده إلى أعمال وتجارب دولـيـ عن الفتـاة التي أصـيبـت بـرـصـاصـةـ في مـنـطـقـةـ الفـصـ الجـارـيـ الـأـيـمـنـ (ـمـنـدـمـنـ الدـمـاـغـ)ـ نـتـجـ عـنـ ذـلـكـ فـقـدـانـهاـ لـلـعـرـفـةـ الـحـسـيـةـ الـلـمـسـيـةـ فـيـ الـجـهـةـ الـيـسـرـىـ فـبـعـدـ تـعـصـيـبـ عـيـنـيـهـاـ وـضـعـ فـيـ يـدـهـاـ الـيـسـرـىـ مشـطـ فـوـصـفـ جـمـيعـ أـجـزـائـهـ إـلـاـ أـنـهـ لـمـ تـسـتـطـعـ تـعـرـفـ عـلـيـهـ وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـهـ فـقـدـتـ ذـكـرـىـ الـمـشـطـ

**الحجـة الثانية :** كما استند رـيبـوـ إـلـىـ التـجـرـيـةـ الـتـيـ قـامـ بـهـاـ الجـراـجـ الفـرـنـسـيـ جـورـجـ بـرـوكـاـ عـلـىـ أـحـدـ الـحـيـوـانـاتـ حـيـنـمـاـ قـامـ بـتـخـرـيـبـ مـنـطـقـةـ فـيـ دـمـاـغـ الـحـيـوـانـ مـسـؤـولـةـ عـنـ حـفـظـ ذـكـرـيـاتـ وـتـثـبـتـ تـجـارـبـ بـرـوكـاـ أـنـ نـزـيفـاـ دـمـوـيـاـ فـيـ مـنـطـقـةـ التـلـفـيـفـ الـثـالـثـ مـنـ الـجـهـةـ الـشـمـالـيـةـ لـلـدـمـاـغـ يـوـلـدـ مـرـضـ الـحـبـسـةـ (ـوـهـوـ مـرـضـ يـفـقـدـ صـاحـبـهـ قـوـةـ الـكـلـامـ مـنـ غـيـرـ أـنـ يـكـوـنـ هـنـالـكـ خـلـلـ فـيـ أـعـضـاءـ الصـوتـ)ـ وـأـنـ فـسـادـ التـلـفـيـفـ الـثـانـيـ مـنـ يـسـارـ النـاحـيـةـ الـجـارـيـةـ يـوـكـ العـمـىـ الـلـفـظـيـ (ـوـهـوـ دـمـعـ فـهـمـ مـعـانـيـ الـكـلـمـاتـ)ـ وـبـهـذاـ فـانـ الـدـمـاـغـ عـنـدـ رـيبـوـ وـعـاءـ لـذـكـرـيـاتـ وـأـنـ هـذـهـ الـأـخـيـرـةـ تـشـبـهـ الـأـفـعـالـ الـأـلـيـةـ أـيـ الـعـادـةـ وـهـنـاـ يـقـولـ : ((ـأـنـ ذـكـرـيـاتـ الرـاسـخـةـ هـيـ ذـكـرـيـاتـ الـتـيـ اـسـتـفـادـتـ مـنـ التـكـرارـ))

**الحجـة الثالثـة :** كما أنـ الـذـاـكـرـةـ ذاتـ أـصـوـلـ مـادـيـةـ مـرـتـبـطـةـ بـالـأـجـهـزـةـ الـعـضـوـيـةـ والـدـلـلـىـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ الـذـاـكـرـةـ تـتـعـدـ بـتـعـدـ الـحـوـاسـ إـذـ هـنـاكـ ذـاـكـرـةـ بـصـرـيـةـ وـذـاـكـرـةـ سـمعـيـةـ وـذـاـكـرـةـ ذـوقـيـةـ ....ـالـخـ

**الحجـة الرابـعـة :** وـتـثـبـتـ التـجـرـيـةـ أـنـ اـخـتـلـالـ الـهـضـمـ وـدـوـرـانـ الـدـمـ وـالـتـنـفـسـ يـؤـثـرـ عـلـىـ التـذـكـرـ إـذـ هـنـاكـ بـعـضـ الـمـوـادـ الـمـهـيـجـةـ لـلـجـمـلـةـ الـعـصـبـيـةـ أـوـ الـمـسـكـنـةـ تـتـبـهـ الـذـاـكـرـةـ أـوـ تـضـعـفـهـاـ فـتـنـاـوـلـ بـعـضـ الـأـغـذـيـةـ يـسـاعـدـ عـلـىـ تـشـيـطـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ اـسـتـرـجـاعـ الـذـكـرـيـاتـ كـتـنـاـوـلـ السـمـكـ الـقـيـيـ بالـبـرـوتـينـ أـوـ الـمـوـزـ أـوـ الـعـسلـ ...ـالـخـ وـهـذـاـ مـاـ أـثـبـتـهـ الـعـلـمـ الـحـدـيـثـ

**الحجـة الخامـسـة :** كما اـعـتـدـ رـيبـوـ عـلـىـ حـجـةـ وـاقـعـيـةـ فـالـلـوـاـقـعـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـأـشـخـاصـ الـمـسـنـينـ يـجـدـونـ صـعـوبـةـ فـيـ اـسـتـرـجـاعـ ذـكـرـيـاتـهـمـ الـمـاضـيـةـ نـتـيـجـةـ مـوـتـ خـلـاـيـاـ الـقـشـرـةـ الـدـمـاـغـيـةـ لـدـيـهـمـ

بينما أنصار **النظرية النفسية** وفي مقدمتهم الفيلسوف الفرنسي **هنري برغسون**

يررون بأن الذاكرة ظاهرة فردية و ذاتية و لكنها ترجع إلى خصائص شعورية نفسية فهي عملية نفسية واعية قوامها الشعور وهو ما يجعلها جوهر روحي محض حيث يرى **برغسون** أن الاحتفاظ بالماضي يتم وفق صورتين مختلفتين جوهريا فقد يكون في صورة آلية مخزونة في الجسم وقد يكون في صورة ذكريات نفسية مستقلة عن الدماغ وتسمى طريقة الاحتفاظ الأولى بذاكرة العادة وهي ذكرة بيولوجية حركية تقوم على أساس البدن و تأخذ شكل عادات آلية تم اكتسابها عن طريق التكرار كالحفظ عن ظهر قلب وأما الصنف الثاني فيسميه **برغسون** بذاكرة الذاكرة أو الذاكرة النفسية الشعورية وهي ذكرة نفسية ذات طبيعة روحية مستقلة تماما عن الجسم والدماغ فتقوم بتصوير الماضي واستحضاره بدون إعادة أو تكرار فهي تنقله إلينا في صورة حالات نفسية ومثالها أن حفظ درس يتطلب تكراره عدة مرات بواسطة التسميع الذاتي والتكرار يكسب عادات حركية تساعد على انتظام الدرس في الذهن واسترجاعه يتم بواسطة تلك العادات الحركية غير أن محاولة استرجاع الطريقة التي تم الحفظ بواسطتها وما صاحب ذلك من ملابسات كالقراءة الأولى

نوع الخط الذي كتب به الدرس مكان الحفظ ... الخ هي عملية نفسية ولا تتم بواسطة الآليات الحركية لأن الذاكرة الحركية تعتمد على التكرار أما الذاكرة النفسية فهي نوع من التصور قائم في الزمان وبهذا فالعادة جسمية والذاكرة نفسية وبحكم **برغسون** أن الذاكرة الحقيقية هي الذاكرة النفسية وليس ذكرة العادة ومنه لما كانت ذكرة الذاكرة مرتبطة بالشعور والنفس فلا بد أن تكون ذو طبيعة نفسية

روحية خالصة لا علاقة لها بالجسد المادي حيث يقول : (( إن الشعور إنما يعني أولا وبالذات الذاكرة )) وهذا ما أغفل عنه أصحاب التفسير المادي للذاكرة لأنهم أخلطوا بين النوعين السابقين واكتفوا بالذاكرة الحركية مهمليين الذاكرة النفسية الأهم منها ويثبت **برغسون** هذا التمييز من خلال مقارنته بين خصائص كل نوع فالإصابات الدماغية في الجهاز العصبي لها تأثير على الآليات الدماغية التي تحفظ ذكرة العادة بينما ليس لها أي أثر على الذكريات النفسية كما أن الاكتساب في النوع الأول يكون بالتدرج والتكرار أما الاكتساب في الثانية فيكون دفعه واحدة

وبدون تكرار مثل إدراكنا لحدث مرور مروء ماضي فلا يستدعي تكراره كي يكتسب كذلك قدرة استرجاع ذكرة العادة مرهونة بمدى تكرارها لهذا يعمد التلميذ أثناء تحضيره لشهادة البكالوريا إلى تكرار المراجعة حتى يتمكن من

استرجاعها يوم الامتحان بينما استرجاع الذكريات على مستوى الذاكرة النفسية مشروط بمدى تأثيرها على نفس الإنسان ودرجة الألم أو اللذة التي تخلفها الحادثة ومن هنا يبدوا الفرق بين هذين النوعين واضحًا وهو ما أغفله التفسير المادي الذي ينطبق على النوع الأول فقط بينما حقيقة الذاكرة وجوهرها هو النوع الثاني أي الذاكرة النفسية التي ترتبط بالنفس والشعور وهو ما جعل برغسون لا يميز بين الذاكرة والشعور حيث يقول : (( إن الشعور هو ذاكرة أعني أنه حفظ للماضي في

### الحاضر وتجمع للماضي في الحاضر ))

وعليه فالذاكرة بالنسبة لبرغسون ما هي إلا استيقاظ الشعور من جديد وإحياء للماضي فالذكريات في نظر برغسون موجودة في الفكر ( الآتا العميق ) لذا يقول فرنسي : (( لما تذكر ما فعلناه فتحن تراه وتعيشه وتكون في الماضي الذي تدركه بدون واسطة )) ويفسر برغسون تفسيره لعملية التذكر بجملة من المبررات المبنية على انتقاده لنظرية ريبو فالدماغ في نظر برغسون أداة لاستحضار الذكريات وليس للاحتفاظ بها وبالتالي إصابة في الدماغ لا يؤدي إلى زوال الذكريات بل إلى ضعف التذكر وفقدان التذكر في نظر برغسون راجع إلى عدم الإرادة في الاسترجاع وليس فقدان وزوال الذكريات لأن الذكريات التي لا تظهر موجودة في اللاشعور والذكريات التي تظهر موجودة في الشعور

**النقـد :** على الرغم من أهمية العوامل العضوية والنفسية في حفظ الذكريات إلا أنها قد تعجز عن استحضار الماضي وإعادة بناءه لذلك لا بد من الاستعانة بالمحيط الاجتماعي في ذلك فالتفسير المادي سطحي وساذج فالذكرى قبل أن تكون ذكرى كانت عبارة عن حالة شعورية عاشها الإنسان في الماضي وعلىه لا يمكن القول بأن هذه الحالة الشعورية تحول إلى حالة مادية كما يدعى ريبو زيادة على ذلك لو افترضنا أنها موجودة في الدماغ فكيف يمكن أن يتحول ما هو مادي إلى ما هو شعوري على اعتبار أنه عندما يتم استرجاع الحادثة تصبح حالة شعورية و القرار بذلك مخالف لمبدأ الهوية فالشعور شيء معنوي فهل يمكن أن يتحول ما هو معنوي إلى ما هو مادي وما هو مادي إلى ما هو معنوي فهذا أمر مستحيل وأيضا

التفسير النفسي للذاكرة يقوم على طابع ميتافيزيقي فلسطي فهو لا يقدم لنا إجابة عن السؤال المشكّل أين تحفظ الذكريات؟ فقولهم أن الذكريات غير المستعملة تحفظ في اللاشعور قول غامض لأن فرضية اللاشعور أيضاً مجرد فرضية فلسفية لم يؤكدوها العلم حتى أن هناك من أنكرواها جملة وتفصيلاً

**التركيب :** إن الذاكرة وظيفة عقلية معقدة يساهم في تكوينها عدة عوامل منها العوامل الذاتية المتمثلة في الجملة العصبية ( الدماغ ) و الأحوال النفسية الشعورية ( الإنفعالات ، الإهتمام ، الرغبة ... ) و التي تؤدي إلى إسترجاع الذكريات إضافة إلى العوامل الاجتماعية بأبعادها و أطراها المختلفة و التي تعيد بناء الذكريات بمساعدة المجتمع

**الرأي الشخصي :** ولكن من وجهة نظري فالذاكرة محصلة لتفاعل العوامل الذاتية ( النفسية و المادية ) و الاجتماعية فعندما نتذكرة لابد من سلامة الجملة العصبية ( الدماغ ) و تدخل الجانب النفسي بشقيه الشعوري واللاشعوري كل هذا بمساعدة المجتمع مثل ذلك أن حفظ النشيد الوطني الجزائري يكون بالإستعانة بالذاكرة المادية عن طريق ترديده مرات كثيرة حتى حفظه و من ثم يصير غناءه كل صباح في بداية اليوم الدراسي بالإستعانة بالذاكرة النفسية إذ يسترجع دفعه واحدة و إن عجز فرد عن إسترجاعه ساعدته بقية التلاميذ في ذلك عن طريق الذاكرة الجماعية

**الخاتمة ( حل المشكله ) :** ومن كل ما سبق من تحليل نستنتج أن الذاكرة ليست ظاهرة اجتماعية فقط وإنما هي وظيفة عقلية ونفسية معقدة يساهم في تركيبها عدة عوامل منها العامل الفردي بأبعاده النفسية والعقلية والبيولوجية والعامل الاجتماعي وما يتضمنه من أطر وقيم اجتماعية ومنه يمكن القول أن الذكريات تتكون بفضل التأثيرات النفسية والمادية والاجتماعية حيث لا يمكن فصل عامل عن الآخر

# dirassatidz.com

 @dirassati1